المعقِد الثَّالث

جمع هِمَّة النَّفس عليه

فإنَّ شَعَث النَّفس إذا جُمع علىٰ العلم التأمَ واجتمع، وإذا شُغل به وبغيره ٱزداد تفرُّقًا وشتاتًا، وإنَّما تُجمع الهِمَّة علىٰ المطلوب بتَفقُّد ثلاثة أمور:

أوَّلها: الحرص علىٰ ما ينفع، فمتىٰ وُفِّق العبد إلىٰ ما ينفعه حَرَص عليه.

ثانيها: الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ
فأوَّلُ ما يجني عليه ٱجتهادُه

ثالثِها: عدم العجز عن بلوغ البُغية منه.

وقد جُمعت هٰذه الأمورُ الثَّلاثة في الحديث الَّذي رواه مسلم ابن الحجَّاج، قال: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير، قالا: حدَّثنا عبد الله بن إدريس، عن ربيعة بن عثمان، عن محمد بن

يحيىٰ بن حَبَّان، عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ**».

فمن أراد جمع هِمَّته علىٰ العلم، فليُشعِل في نفسه شُعلة الحرص عليه؛ لأنَّه ينفعه، بل كلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة إنَّما هو ثمرةٌ من ثمرات العلم، وليستعن بالله عليه، ولا يعجِز عن شيءٍ منه؛ فإنَّه حينئذٍ يُدرك بغيته ويفوز بما أمَّله.

قال الجُنَيد ـ رحمه الله ـ: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدٍّ وصدقٍ إلا ناله، فإن لم يَنَلْه كلَّه نال بعضه».

الجَدُّ بالجِدِّ والحرمان بالكسلِ
فانْصَبْ تُصِب عن قريبٍ غايةَ الأملِ

فانهض بهِمَّتك واستيقظ من الغفلة؛ فإنَّ العبد إذا رُزق هِمَّةً عاليةً، فُتحت له أبواب الخيرات، وتسابقت إليه المسرَّات.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه «الفوائد»:

«إذا طلع نجم الهِمَّة في ظلام ليل البَطالة، ورَدِفه قمرُ العزيمة، أشرقت الأرض بنور ربِّها».

ومن تعلَّقت هِمَّته بمطعمٍ، أو ملبسٍ، أو مأكلٍ، أو مشربٍ، لم يَشَمَّ رائحة العلم.

واعــلَــمْ بــأنَّ الــعــلــمَ لــيــس يــنــالُــه
مَــن هَــمُّــه فــي مــطــعــمٍ أو مــلــبــسِ
فــاحــرِصْ لِــتَــبْــلُــغَ فــيــه حــظًّــا وافــرًا
واهــجــرْ لــه طــيــبَ الــمــنــامِ وغــلِّــسِ

وإنَّ ممَّا يعلي الهِمَّة ويسمو بالنَّفس: ٱعتبارَ حال مَن سبق، وتعرُّفَ هِمم القوم الماضين.

فأبو عبد الله أحمد ابن حنبل كان ـ وهو في الصِّبا ـ ربَّما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلَق الشُّيوخ، فتأخذ أُمُّه بثيابه وتقول ـ رحمةً به ـ: «حتىٰ يُؤَذِّنَ النَّاس أو يُصبحوا».

وقرأ الخطيب البغداديُّ ـ رحمه الله ـ «صحيحَ البخاريِّ» كلَّه علىٰ إسماعيل الحِيريِّ في ثلاثة مجالسَ؛ ٱثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلىٰ صلاة الفجر، واليوم الثَّالث من ضحوة النَّهار إلىٰ صلاة المغرب، ومن المغرب إلىٰ طلوع الفجر.

قال الذَّهبيُّ في «تاريخ الإسلام»: «وهٰذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه».

رحم الله أبا عبد الله، كيف لو رأىٰ هِمم أهل هذا الزَّمان ماذا يقول؟!

وكان أبو محمَّدٍ ابنُ التَّبانِ أوَّلَ ٱبتدائه يدرس اللَّيل كلَّه، فكانت أُمُّه ترحمه وتنهاه عن القراءة باللَّيل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة ـ شيءٍ من الآنية العظيمة ـ ويتظاهر بالنَّوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدَّرس.

وقد رأيت في بعض المجموعات الخَطِّية في مكتبةٍ نجديَّةٍ خاصَّةٍ، ممَّا يُنسب إلىٰ عبد الرَّحمن بن حسن آل الشَّيخ ـ صاحب فتح المجيد ـ قولَه ـ رحمه الله ـ:

شمِّر إلىٰ طلبِ العلومِ ذيولا
وانهضْ لذلك بُكرةً وأصيلا
وَصِلِ السُّؤالَ وكن هُدِيت مُباحِثًا
فالعيب عندي أن تكونَ جهولا

فكن رجلًا رِجْلُه على الثَّرىٰ ثابتة، وهامةُ همَّته فوق الثُّريا سامقة، ولا تكن شابَّ البدن أشيبَ الهِمَّة؛ فإنَّ هِمَّة الصَّادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابن عَقيل ـ أحد أذكياء العالم من فقهاء الحنابلة ـ يُنشِد وهو في الثَّمانين:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي
ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي

وإنَّما أعتاض شعري غيرَ صِبغته
والشَّيبُ في الشَّعر غيرُ الشَّيب في الهِممِ

المعقِد الرَّابع
صرف الهِمَّة فيه إلىٰ علم القرآن والسُّنَّة

فإنَّ كلَّ علمٍ نافعٍ مردُّه إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إمَّا خادمٌ لهما؛ فيؤخذ منه ما تتحقَّق به الخدمة، أو أجنبيٌّ عنهما؛ فلا يضُرُّ الجهل به.

فإلىٰ القرآن والسُّنَّة يرجع العلم كلُّه، وبهما أُمِر النَّبيُّ ﷺ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّخرُف].

وهل أُوحي إلىٰ أبي القاسم ﷺ شيءٌ سوىٰ القرآن والسُّنَّة؟!

ومن جعل علمه القرآن والسُّنَّة، كان متَّبِعًا غير مبتدعٍ، ونال من العلم أوفره.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ القرآن؛ فإنَّ فيه علم الأوَّلين والآخِرين».

وقال مسروق ـ رحمه الله ـ: «ما نسأل أصحابَ محمَّدٍ ﷺ عن شيءٍ إلا علْمُه في القرآن، إلا أنَّ علمنا يقصُر عنه».

ويُنسب لابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه كان يُنشِد:

جـمـيـعُ الـعـلـمِ فـي الـقـرآنِ لـكـن
تـقـاصَـرُ عـنـه أفـهـامُ الـرِّجـالِ

وما أحسنَ قولَ عياضٍ اليَحصُبيِّ في كتابه «الإلماع»:

الـعـلـم فـي أصـلـيـن لا يـعـدوهـمـا
إلا الـمُـضِـلُّ عـنِ الـطَّـريـق الـلَّاحـبِ
عـلـمُ الـكـتـاب وعـلـم الآثـارِ الَّـتـي
قـد أُسـنـدت عـن تـابـعٍ عـن صـاحـبِ

وأعلىٰ الهمم في طلب العلم، كما قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه «الفوائد»: «طلبُ علم الكتاب والسُّنَّة، والفهمُ عن الله ورسوله نفسَ المراد، وعلمُ حدود المُنزَّل».

وقد كان هٰذا هو علم السَّلف ـ عليهم رحمة الله ـ ثم كَثُر الكلام بعدهم فيما لا ينفع، فالعلم في السَّلف أكثر، والكلام فيمن بعدهم أكثر.

قال حمَّاد بن زيد: قلتُ لأيوبَ السَّختيانيِّ: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدَّم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدَّم أكثر».